﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ شهادةِ الحقِّ سبحانَه وَجَدَتْ كلُّ نفسٍ جزاءَ عملِها

لمّا أخبر الله تعالى عن حال المشركين، وتبرُّؤ المعبودين منهم مستشهدين بالله في قوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تشوَّفت النَّفس إلى الاطِّلاع على حال غيرهم، فقال مستأنفًا مُخبرًا عن كِلا الفريقين: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، أي: في ذلك الموقف مِنَ المكان والزَّمان العظيمِ الأهوالِ تبلو كلُّ نفس طائعةٍ وعاصية ما أسلفت(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبْلُواْ﴾: أصلُ الابْتِلاءِ: الاختِبارُ والامتِحانُ، يُقال: بَلَوتُ الرَّجلَ، وابْتَلَيْتُهُ، أي: امتَحَنتُهُ واختَبَرتُهُ وجَرَّبتُهُ(2). وبَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَق، وكأنِّي أخْلَقْتُه مِن كَثْرة اختباري له(3)، وأصلُ الابْتِلاءِ مِنَ البَلاءِ، وهو: التَّكليفُ بِالأمرِ الشّاقِّ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ معًا، يُقالُ: أَبْلَيْتُهُ بَلاءً حَسَنًا، وَبَلاءً سَيِّئًا، وَنَزَلَتْ بَلاءً على الكُفّارِ(4)، وأكثر ما يُستَعمَلُ في المَكروهِ، والمراد من ﴿تَبْلُواْ﴾ في الآية: تَخْتَبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عنِ التَّحقُّق وعِلْم اليقين.

2) ﴿أَسْلَفَتْ﴾: أصلُ السَّلَفِ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وَسَبْقٍ(5)، وكلُّ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن سيده، المحكم: (بلو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (بلي، بلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلف).

شيءٍ قَدَّمتَه؛ فهو سَلَفٌ، والفعل: سَلَفَ يَسلُفُ سُلوفًا[1]، إذا مضى وانقضى، وتقدَّم وسَبق، فهو سالِفٌ، وسَلَفُ الرَّجلِ: آباؤُه المتقدِّمون والرّاحلون، والأوَّلون السّابقون، وذَوو قَرابةِ الرَّجل الَّذين هم فوقَه في السِّن والفَضل[2]. ومن معاني السَّلَف: القَرْضُ، كلُّ ذلك لما فيه مِنَ التَّقدُّم، وهذا هو المراد مِنَ الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ امرئ مرهونٌ بعمله يومَ القيامة

في ذلك المَقام في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ، تَخْتَبرُ كلّ نفسٍ مُؤمنةٍ أو كافرةٍ ما سَلَف منها من أعمالٍ، فترى ما كان نافعًا أو ضارًّا من هذه الأعمال، وترى الجزاءَ المناسبَ عن كلِّ عملٍ بعد أن عادَ الجميعُ إلى اللّه مولاهم الحقّ؛ ليقضيَ بينَهم بقضائه العادل، وقد زال عن المُشركينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ على اللّه، بدَعواهم أنَّ له شُرَكاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللّه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّذييل والفَذْلَكة:

إيجازٌ بعدَ البَسْط؛ فالجزاءُ مناسبٌ لكلِّ عملٍ، والبُطلانُ حليفُ افتراءِ المشركين

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَل السّابقة؛ مِن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25] إلى هنا، وهو اعتراضٌ بينَ الجُمَل المتعاطفةِ، والإشارةُ إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس: 28]، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه[4].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (سلف).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ: (سلف).
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/266، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن: ص 363، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

فأتتْ هذه الآية كالخُلاصة والنَّتيجةِ لما تقدَّم مِن أحوال الفريقين؛ المحسنين والمسيئين، وتبرؤِ المعبودين مِنَ المشركين، وبيانِ مصيرهم في ذلك الموقف العظيم، الذي تُخْتَبرُ فيه كلُّ نفسٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ، فتعاين ما عملتْهُ مِن قبل، ويُردّون جميعًا إلى مولاهم اللّه الحَقِّ، ويغيب عنِ المشركين أكاذيبُهم ومعبوداتُهم الباطلة.

وجه التعبير باسم الإشارة في: ﴿هُنَالِكَ﴾:

الموقفُ أمامَ الله شـريـفُ الـحـال عظيمُ الأهوال

الإشارةُ بـ: ﴿هُنَالِكَ﴾ لها عدةُ معانٍ؛ إمّا تشير إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه، وهو في محلِّ نَصْبٍ على الظَّرفيَّة، وعاملُه: ﴿تَبْلُواْ﴾. وإمّا أن تُشير إلى الوقت؛ على معنى استعارة إطلاقِ اسمِ المكان على الزَّمان. وإمّا أن تُشير إلى المقام أو الموقف، أي: بما يشمل الزَّمان والمكان[1].

ومهما يكن المعنى فقد قُدِّمت الإشارةُ إليه باستعمال اسم الإشارة، الذي يُشار به إلى المكان البعيد، مع أنَّه مقامٌ يعيشونه ويعانونه وليس بالبعيد عنهم؛ "للاهتمام به؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ مِنَ الكلام؛ لعِظَم ما يقع فيه"[2]، فهو موقف مِنَ المكان والزَّمان، عظيمُ الأهوال، متوالي الزِّلزال[3]، ولِرِفْعَة الموقفِ أمامَ اللّه، وشَرَفِه وشَرفِ المكان والزَّمان[4]، وهو تهكُّم بهم؛ لكونهم يرون هذا المقامَ أو الموقفَ أو الزَّمان بعيدًا، أي: مستحيلًا، وهو قريب[5].

توجيه استعارة إطلاق اسمِ المكان على الزَّمان:

في الاستـعـارةِ إشـــارةٌ إلى إمكانيةِ تـدارُكِ الأمـرِ قبـلَ يـومِ الحشرِ

﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ يُشار به إلى المكان البعيد، وقد أطلقَه

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/441، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

البيانُ الإلهيُّ على الزَّمان في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ استعارةٌ للزَّمان البعيد؛ لغرضين: حقيقي ومعنوي، تحريرهما:

الإشارة إلى أنَّ هناك وقتًا للتَّوبة والعودة إلى الله قبلَ يوم الجزاء، فالزَّمان ما زال بعيدًا، والعاقل مَن يَخْتَبر عملَه في الدُّنيا قبلَ أن يأتيَ ذلك الوقتُ البعيدُ، الذي تَخْتَبر فيه كلُّ نفسٍ، وتذوقُ وتعاينُ ما أسلفت، أو تتبع عملَها، أو تقرأُ صحيفةَ عملها، ولا مجال حينَها للاستدراك.

توجيه القراءات في الفعل ﴿تَبْلُواْ﴾:

في الآية قراءتان متواترتان؛ قراءةٌ بالتاء: ﴿تَتْلُواْ﴾، قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلف، وقراءةٌ بالتاء والباء: ﴿تَبْلُواْ﴾، قرأ بها باقي القُرّاءِ العَشَرة[1].

الإنسانُ في المحشر - على كلتا القراءتين - مُتَّبِعٌ ما أسلفَ من عمله، مختبرٌ له

وفي معنى القراءة الأولى: ﴿تَتْلُواْ﴾ ثلاثة أوجه؛ الأوَّل: بمعنى تقرأ؛ أي: تتلو كلُّ نفس ما أسلفَتْه مِن أعمال في كتابها الذي تحمله بيمينها أو شمالها، فتقرأ عملَها مُحْضَرا، كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 13 - 14]. والثّاني: بمعنى تتبع، أي: تتبَعُ كلُّ نفس ما قدَّمت في الدُّنيا لذلك اليوم؛ لقوله ﷺ في حديث طويل: «يجمع الله النّاسَ يومَ القيامة، فيقول: مَن كان يعبُد شيئًا فلْيَتْبَعْه، فيَتبَعُ مَن كان يعبُد الشَّمسَ الشَّمسَ، ويتْبَعُ مَن كان يَعبُد القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَع مَن كان يعبُد الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ»[2]. والثّالث: بمعنى تعاين، ذكرَهُ الطَّبريُّ عن ابن زيد[3].

وأمّا معنى قراءة: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالباء، فهو: عند ذلك تَخْتَبر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت مِن خيرٍ أو شَرٍّ[4].

(1) ابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/283.
(2) صحيح البخاريِّ، كتاب: التَّوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، الحديث رقم: (7437).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

ومِن أَجملِ ما ذُكِرَ في توجيه هاتين القراءتين، بما يجمع المعانيَ كلَّها قولُ الطَّبريِّ رحمه الله: "والصَّواب مِنَ القول في ذلك أن يُقال: إنَّهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمَّةٌ مِنَ القُرّاء، وهما متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ مَن تَبِعَ في الآخرةِ ما أَسْلَفَ مِنَ العملِ في الدُّنيا، هَجَم به على مَوْرِدِه، فيُخبَرُ هنالك ما أَسْلَفَ مِن صالحٍ أو سيِّئٍ في الدُّنيا، وإنَّ مَنْ خَبَر ما أسلفَ في الدُّنيا مِن أعماله في الآخرة، فإنَّما يَخْبُرُ بعدَ مصيره إلى حيثُ أحلَّه ما قدَّم في الدُّنيا مِن عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبِعٌ ما أسلف مِن عمله، مُختَبِرٌ له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمُصِيبٌ الصَّوابَ في ذلك"[1].

بلاغة الكناية في: ﴿تَبْلُواْ﴾:

في القراءتين المتواترتين لقوله: ﴿تَبْلُواْ﴾ كنايَةٌ:

أمّا على قراءة: ﴿تَبْلُواْ﴾، أي: تَخْتَبِر، فهي كنايةٌ عنِ التَّحَقّقِ وعِلْم اليقين؛ إذِ الاختبارُ سَبَبُه، والتَّحَقّقُ واليقينُ لازمٌ له، والمعنى: أنَّ كلَّ نفسٍ تَخْتَبِرُ حالةَ ما أَسْلَفت وثَمرتَه، فتَعرفُ ما هو حَسَنٌ ونافعٌ، وما هو قبيحٌ وضارٌّ؛ إذ قد وَضَحَ لهم ما يُفضِي بصاحبه إلى النَّعيم، أو إلى ضِدِّه[2].

وأمّا على قراءة: ﴿تَتْلُواْ﴾، مِن التِّلاوة بمعنى: القراءة، والمراد: قراءةُ صُحُفِ ما أسلفت، فهي كنايَةٌ عن ظُهور الأعمال[3].

في الموقفِ المكشوف تَخْتَبِرُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَتْ، وتدركُ عاقبَتَه

سِرُّ التَّعبير عنِ الفعل بصيغة المضارع:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الفعل ﴿تَبْلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أنّ هذا الاختبارَ والمعاينة لما عَمِلَتْ هو أمرٌ مستمرٌّ في هذا الموقف العظيم الدَّهِشِ،

لحظاتُ المحشرِ كلُّها لحظاتُ بلاءٍ مستمرٍ، وعلْمٍ ويقينٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/449، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.

الذي يستلزم ذلك؛ سواءٌ وهي تُحشَر، أو تخاطَب خطابَ التَّقريع وإقامةِ الحُجَّة، أو وهي ترى تَبَرُّؤَ مَن زعمتهم شفعاءَ لها، أو وهيَ تقرأ كتابَها، أو تتبعُ أعمالَها وحالَها؛ إذ إنَّها "تعاينُه بكُنْهِهِ مستَتبَعًا لآثاره، مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، وخيرٍ أو شَرٍّ، وأمّا ما علِمَتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَلٌ"[1]، إذًا المعاينةُ التّامَّة التَّفصيليَّة التي هي أتمُّ المعاينة، تعني الاستمرارَ، كما أنّ هذا التَّعبير يُفيد تصويرَ هذا المشهد.

وجهُ التَّعبير بـ ﴿كُلُّ﴾:

عبَّر القرآنُ بلفظة: ﴿كُلُّ﴾ للدّلالة على العموم؛ إذ إنَّها مِن أقوى صيغِ العموم؛ إذ تشمَل العاقلَ وغيرَه (المذكَّرَ والمؤنَّثَ، والمفرد والجمع)، والمعنى: تَخْتَبِر وتذوقُ كُلُّ نَفْسٍ، مؤمنةً كانت أو كافرةً، سعيدةً أو شقيَّةً، ما أَسْلَفَتْ مِنَ العمل[2].

العدلُ المطلقُ يُقيمُ الحُجَّةَ على الجميع؛ كافرٍ ومؤمن

بيانُ الإضافة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿كُلُّ﴾التي هي مِن أقوى صيغِ العموم، إلى لفظة ﴿نَفْسٍ﴾ التي أفادت العموم مع أنَّها نكرةٌ في سياق الإثبات، وذلك بسبب قرينة المقام؛ فليس علم النَّفس بما أحضرت، أو بما قدَّمت وأخَّرت – في مقام الحساب يومَ القيامة – أمرًا خاصًّا بواحدٍ دونَ الآخر.

الابتلاءُ في الموقفِ العظيمِ لا يَخُصُّ نفسًا دون نفس، ولا تُفْلِتُ منه نفسٌ

وإضافَةُ لفظٍ عامٍّ إلى لفظ عامٍّ يُفيد زيادةَ العموم وتأكيدَه، فالابتلاءُ في موقف الجزاءِ والحساب والعَدْلِ المطلَق، لا يَخُصّ نفسًا دونَ نفس، ولا تُفْلِت منه نفسٌ، فهو يشمَل الإنسَ والجانَّ، والمؤمنَ والكافرَ، والذَّكَرَ والأُنثَى.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

إيثار الموصول ﴿مَّآ﴾:

موقفٌ وكتابٌ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ الاسمِ الموصول ﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾؛ لإفادة العموم، والمعنى: تَخْتَبِر وتعاينُ كلُّ نفسٍ كلَّ ما عملَتْه مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، وسواء كان مختصًّا بالجوانب العقديَّة، أو التَّشريعيَّة، أو الأخلاقيَّة، وسواء كان مختصًّا بنفسه أم بغيره.

إيثار لفظِ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ ماضيًا:

يأسٌ وتحسُّرٌ يومَ لا ينفع ذلك، فقد عاينوا ثمرةَ ما أسلفوه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾، ولم يَقُل: (كَسَبت) أو (عَمِلَت) أو (قَدَّمَت)؛ لما في معنى مادة السَّلَف - فضلًا عن المُضي والانقضاء والتَّقدُّم والسَّبْق - مِن معنى القَرْض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يلاقونه إنَّما هو مِن كَسْب أيديهم، وهم الذين قدَّموه لأنفسهم وأقرضوه، فهو عائدٌ إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]، وفي هذا مِنَ التَّحَسُّر ما فيه.

ومجيء الفعل بصيغة الماضي - فضلًا عمّا تتضَمَّنُه مادةُ السَّلَف مِنَ المُضِي - يُفيد أنَّه أمرٌ وَقَعَ وانقَضَى، ولا مجالَ للاستدراكِ والرُّجوعِ إلى الدُّنيا، فاليومُ يومُ الحساب.

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَرُدُّواْ﴾:

أعرضوا عنِ المولى الباطلِ، ورجعوا إلى المولى الحقِّ

الواو في قوله: ﴿وَرُدُّواْ﴾ عاطفةٌ، وقدِ اختُلِفَ في المعطوف عليه على قولين:

الأوَّل: المعطوف عليه (زيَّلنا) وما عُطِف على (زيّلنا)، وبناءً عليه: يكون الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿وَرُدُّواْ﴾ للذين أشركوا، وجملة: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ﴾ اعتراضٌ في أثناء الحكايةِ، مُقَرِّرٌ لمضمونها، والمعنى: فَفَرَّقْنا بينَ المشركين وأصنامِهم، وتَبرَّأتِ الأصنامُ مِنَ

المشركين" ورجع هؤلاءِ المشركون يومَئِذٍ إلى اللّه، الذي هو ربُّهم ومالكُهم الحَقُّ، لا شَكَّ فيه، دونَ ما كانوا يزعمون أنَّهم لهم أربابٌ مِنَ الآلهة والأنداد"[1].

الثّاني: المعطوف عليه هو: ﴿تَبْلُواْ﴾، والضَّمير في (رُدّوا) للنُّفوس المدلولِ عليها بكلِّ نفس، ويكون غرضُ العدول إلى الماضي: الدّلالةَ على التَّحقُّق والتَّقرُّر[2]، والمعنى: تَخْتَبِر كلُّ نفسٍ وتذوقُ وتعاينُ ما أُسْلِفَ مِن عمل، وتُردُ إلى ربِّها الحقِّ، لا إلى ما اتُخِذَ ربًّا باطلًا.

عِلَّة التَّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول مجموعًا في: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالفعل المبنيّ للمفعول بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ لأمور؛ أحدها: التَّركيز على الحَدَث، وهو رجوعُهم إلى مولاهم الحقِّ وعدمُ الالتفات إلى سواه، وذلك بصرف الحدث عن مُحدِثه وعدم إسناده إليه؛ ليَحْصُر الوعيَ في الحدث، فلا يتوزَّع في غيره، وهذا الحَدَث – الرَّدُّ الذي يعني: صرفَ الشَّيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه – كافٍ في الرَّهبة لمَن له لُبٌّ[3]؛ إذِ الأمرُ يعود إلى أصله، فقد كانوا مع اللّه أوَّلًا، ثمَّ اتَّخذوا الشُّركاءَ، وفي هذا اليوم الآخِر يَرجعون لربِّهم سبحانَه، الذي قَهَرهم بسلطانه ورُبوبيَّته[4]. والآخر: أنّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملك ردَّهم إلّا هو سبحانَه، الملكُ الأعظمُ الذي لا مُلْكَ إلّا مُلْكُه، أي: أنَّ هذا الفعلَ لا يَصْلُح إلّا للّه سبحانَه، ولا يكون إلّا منه، فلا ينصرفُ الذِّهْن فيه إلّا إليه سبحانَه، ولذلك لم يُذْكَر الفاعِلُ.

المرجعُ في اليومِ العصيبِ الدَّهِشِ، لا يَصْلُحُ ولا يكونُ إلّا لله الخالقِ المالك

سِرُّ التَّصريح باسم الله الأعظم في: ﴿ٱللَّهِ﴾:

صرَّح البيانُ الإلهيُّ باسم اللّه الأعظم دون غيره مِنَ الأسماء

المرجعُ في الموقف العظيم مكانًا وزمانًا وحدثًا إلى الله الملكِ الأعظم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5903.

الحُسْنى؛ لأنَّه الاسمُ الجامعُ لجميع صفاتِ الجلالِ والكمال، ولأنَّه الأنسبُ للسِّياق؛ إذِ الموقفُ عظيمٌ زمانًا ومكانًا وأحداثًا، ولذا عبَّر البقاعِيُّ بقوله: "إلى اللَّه الملك الأعظم"[1].

نُكْتَةُ الوصف بـ: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾:

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ صفةٌ أولى للاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة ثانية، أو أن يكون ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ بدلًا منَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفةً لـ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾.

يـــومُ الـحـشـر يـومٌ يتبدَّى فيه سـلـطـانُ الـلـه حقًّا وتَتَبدَّدُ فيه أوهـــامُ أولـيـاءِ الشَّيطان

ومِن فوائد الصِّفة: أنَّها تُحدِّدُ ماهيَّة الشَّيء بدِقَّةٍ متناهيَةٍ، أو تَشْرحُ أهمَّ مِيْزةٍ فيه، وغرضُها في الآية: الاحترازُ عمّا ادَّعوا مِن أوثانٍ وأندادٍ اتَّخذوها، ففي هذا اليوم يَتَبدَّى سلطانُ اللَّه تعالى حقًّا، فهو اللَّه الخالقُ المالك، الثّابتُ ملكُهُ وسُلْطانه، "لا يقبلُ الزَّوالَ أزلًا ولا أبدًا"[2]، وتَتَبدَّد أوهامُهم عن أولياء الشَّيطان وما زعموه[3]، وما اتَّخذوه ربًّا باطلًا وليس لرُبوبيَّتِه حقيقة[4]، ومِن ثمَّ لم يكن لهم قدرةٌ على قَصْدِ غيرِ اللَّه سبحانَه، والالتفاتِ إلى سواه مِن تلك الأباطيل، بلِ انقطع رجاؤُهم مِن كلِّ ما كانوا يَدَّعونَهُ في الدُّنيا، وهو المراد بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾[5].

حقيقة (المولى) في: ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾:

اللـه سبحانَه خالقُهم ومالكُم والمـتـصـرِّفُ في شؤونهم

أتى القرآنُ بلفظ (المولى) في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ على حقيقته؛ فاللَّه سبحانَه هو خالقُهم وربُّهم، والمالكُ الذي يتولَّى أمورَهم، فهو سبحانَه خالقُ الكلِّ، ومالكُ الكلِّ، ومتولِّي أمورِهم، والمُتَصَرِّفُ في شؤونهم[6].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 796.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/418، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

الفرق بين الولاية هنا ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾، وبين: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

يُطلق المولى في اللُّغة على المالِك، ويُطلق على النّاصر، فمعنى المولى في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾: الرَّبُّ والمالك، أي: ورجعوا إلى الله ربِّهم ومالكهم، فالله تعالى ربُّ كلِّ أحدٍ مِنَ النّاس ومالِكُهم، وأمّا معنى المولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد ﷺ: 11] فهو النّاصر، أي: أنَّ الكافرين لا ناصِرَ لهم[1].

الولايَةُ العامَّة هي ولايَةُ رُبوبيَّةٍ ومُلْكٍ، والولايَةُ الخاصَّة هي ولايَةُ نُصْرةٍ للمؤمنين

دلالة العطف: ﴿وَضَلَّ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَضَلَّ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قولُه تعالى: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المعطوفةُ على: ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾، على القول بأنّ المقصود مِن كلِّ نفس: النَّفسُ المشْرِكَةُ.

مَفادُ الجملِ المعطوفة ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة، وأن ليس لغيره إلّا المملوكيَّة

والفقراتُ الثَّلاث مِنَ الآية كلٌّ منها تُعِينُ الأُخْرَيين على إفادةِ حقيقةِ معناها، وحاصلُ مفادِ المجموعِ: ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة يومَئِذٍ ظهورَ عِيانٍ، وأن ليس لغيره تعالى إلّا الفقرُ والمملوكيَّة المحصَّنة، فتَبْطُل عند ذلك كلُّ دعوى باطلةٍ، وينهَدِمُ بنيانُ الأوهام.

وجه تعديَةِ الضَّلال بـ(عن): ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾:

المولى الحقُّ لا يَغيبُ عن موالِيه، ولا يَتَخَلَّى عنهم وقتَ حاجتهم إليه

أتى البيانُ الإلهيُّ بفعل الضَّلال مُعَدًّى بـ (عن) في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ لأنَّ فعل (ضَلّ) هنا مستعارٌ لمعنى (غاب)، فلمّا كانت تلكَ الغيبةُ بحيث لا يمكن إحضارُ ما غاب، وأنَّه كالشَّيء الضّائع؛ قيل: ضَلَّ، ومِنَ المجاز: ضَلَّ عن كذا، ضاع[2]، وحرفُ الجرِّ (عن) يدلُّ على المجاوزة، فمعنى: (ضَلَّ عنهم): غابَ وذهب وضاع عنهم ما كانوا يفترونه مِنَ الكَذِب ومِن دَعْواهم أنَّ أصنامَهم يشفعون لهم، فلم يبقَ لهم أثرٌ، وكأنَّ هؤلاءِ الشُّركاء تجاوزوهم غيرَ مُكْترثين بهم، فلم ينصروهم ولم يُنقذوهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المولى الحقَّ

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/442، والآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 12/105.

مِن شأنه أن يكون حمايَةً ووقايَةً لمواليه عندَ الحاجَةِ والشَّدائد، وأمّا المشركون فإنَّ ما كانوا يعبدونَهُ مِنَ الباطل، أصبح سرابًا خادعًا، غاب عنهم وتخلَّى عن حمايتهم ووقايتهم وَقتَ الحاجَة والشِّدَّة.

إيثارُ الموصول: ﴿مَّا﴾:

عـمـومُ ضـيـاعِ افـتـراءاتِ المـشـركـين على المعبودين كذبًا لهم أو عليهم

آثَر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ ﴿مَّا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ليشملَ المعنى أمرين وِفاقَ المقصودِ بها:

الأوَّل: الأصنام، فيكون قد حُذِفَ العائِدُ مع حرف الجرِّ بدون أن يَجرَّ الموصولَ بمثل ما جَرَّ به العائِدَ، والحَقُّ جوازُه، فالتَّقدير: ما كانوا يكذبون عليه أو له، وضَلالُه: عدمُ وجودِه على الوصف المزعوم له. الثّاني: نفسُ الافتراء، أي: وضلَّ، أي: ظهرَ نَفْيُ الافتراءِ الذي كانوا يفترونه، وكَذِبُه[1].

إذًا، فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ الموصوليَّة هي العمومُ؛ إذ لو عَبَّر بقوله: (وضَلَّ عنهم أصنامُهم)، أي: لم يجدوها على الوَصْف الذي يريدونه، لما شَمَل المعنى الثّاني، وهو (ضَلَّ عنهم الافتراءُ الذي يفترونه) أي: ظَهَر كَذِبُه. ولو عبَّر بالمعنى الثّاني لَما شَمَلَ الأول. ويرى الآلوسيُّ: أنَّها تحتمل أن تكون مصدريَّة[2]، أي: (وضَلَّ عنهم افتراؤهم)، أي: ظَهَر كَذِبُهم.

بيانُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مجموعًا: ﴿كَانُواْ﴾:

لا قيمة للباطل مـهـمـا كَـثُـرَ واستـمـرَّ وثَـبَـتَ عليه صاحبُه في أحواله الماضيَة والحاضِرَة

عبَّر البيانُ الإلهيُّ باستعمال فعلِ الكَونِ ماضيًا مجموعًا ﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا ثابتين على الافتراء؛ إذِ الجملةُ الاسميَّة تُفيد الدَّوامَ والثُّبوتَ، كما أنَّ الجمع بينَ الماضي في ﴿كَانُواْ﴾، والمستقبلِ في ﴿يَفْتَرُونَ﴾، يدلُّ على استمرار الفعل، أي: فعلِ افترائِهم على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/103.

اللّه، ونسبتِهم الإلهيَّة إلى الأصنام، وغيرِ ذلك في جميع أحوالهم الماضية والحاضرة[1].

التَّعبير عن افترائهم بالمضارع مجموعًا: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

عبّر القرآنُ بصيغة المضارع في: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على استمرار افتراءاتهم وتجدُّدِها وتكرارها، أي: غاب عنهم وبَعُد عن عقولهم ما كانوا يفترونه في عبادات باطلة، وافتراءٍ كاذب كانوا مستمرين عليه، يكرِّرونَه ليلًا ونهارًا، أي: لم يَجدوه على الوصف المزعوم له[2].

حكايةُ حالهم الماضية في الافتراء المستمرِّ تُظْهِرُ لهم قُبْحَ جريمتِهم، وتزيدُهم تَحَسُّرًا

كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع يفيد حكايةَ حالهم الماضية في الافتراء، ليثيرَ في المخيلة صورةً لافتراءاتهم المستمرّة والمتجدِّدَة، بما يُظْهِر لهم قُبحَ جريمتِهم، وزيادةَ تحسُّرهم، باجتماع صورة افتراءاتهم في المخيلة، وما يرونه ويعانونه مِن عدم وجود ما زعموه في أصنامهم، أو ظهورِ نفيه وكَذِبِ هذه الافتراءات.

بلاغةُ حَذْفِ مُتعلّق ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الإبهامُ الحاصلُ في الحذف يدلُّ على كثرة افتراءاتهم على الله، وتنوّعها

في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ حذفَ القرآنُ مفعولَ قولِه: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على العُموم، والمعنى: أن قد ضلَّ عنهم، وضاعَ كلُّ ما كانوا يفترونه مِنَ الآلهة وشفاعتِها، وما كانوا يتخرَّصونَه مِنَ الفِريَة والكذب على اللّه، بدعواهم أوثانَهم أنَّها للّه شركاءُ، وأنَّها تُقرِّبهم إليه زُلْفَى، وما كانوا يختلقونه في عبادات باطلة، ويفترونه في الدُّنيا مِنَ التَّكذيب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّدُّ والرَّجعة والعَودُ:

الرّدُّ صَرفٌ ورجوعٌ بعارض، والرُّجوعُ العودُ إلى ما كان منه البَدء، والعَودُ تكرار الفعل

لم يُفرِّق اللُّغويون بين هذه الألفاظ، وتكاد تكون مترادفةً، ونجد

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

هذا من خلال تعريفهم لها، إلّا أنَّه عند إمعان النَّظر في معاني هذه الألفاظ ودلالاتها، واستعمالها القرآنيّ نلحظ أنَّ كلًّا منها قد اختصَّ بملْمَح دلاليٍّ يميِّزُه عن غيره، بحسب ما سيأتي:

الرّدُّ: رَجْعُ الشَّيء[1]، وصَرْفُه بذاته، أو بحالة مِن أحواله، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 62]، الرّدُّ كالرَّجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2]، والارتداد: الرُّجوع، وهو صَدُّ استرسالِ ما يمتدُّ أو ينتشر، ورَدُّه عن وجهه: صَرْفُه[3].

الرَّجْعَة: الرُّجوع: العَود إلى ما كان منه البَدءُ، وتقدير البَدء مكانًا كان، أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجُزء مِن أجزائه، أو بفعلٍ مِن أفعاله، والرَّجْعُ: الإعادة[4]، وهو نقيض الذَّهاب، ورَجَعَ الشَّيء عنِ الشَّيء، ورجع إليه: صَرفَه ورَدَّه[5]، والرُّجوع: تَحوُّلٌ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب فهو بمعنى العَود[6].

العَودُ: يدلُّ على تثنية في الأمر، فهو تثنيةُ الأمر عَودًا بعد بَدْء، تقول: بدأ ثمَّ عاد[7]، وعاد عودًا وعودة: رَجَعَ وارتدّ، يُقال: رَجَعَ عودًا على بَدْء، ورَجَعَ عودَه على بَدئِه؛ لم يقطع ذَهابه حَتَّى وصلَه بِرُجوعِهِ[8]، والعَودُ: الرُّجوع إلى الشَّيء بعدَ الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[9]، والعَوْد: الرُّجوع، وهو تجدّدٌ وتكرّرٌ لوجود الشَّيء في المكان، أو لوجود الحال، والعَوْد بمعنى رُجوع الذّات نفسِها إلى المكان، ولو بحال مختلفة[10].

إذًا: يتميّز الرّدُّ: بأنّ فيه إشارةً إلى شيء خارج عن إرادة الشّخص الذي ارتدّ، وكأنَّ أحدًا قطع عليه استرسالَه، وصَرفَه عن وُجهته، فينعكسُ اتجاهُه، ويرجع بذاته، أو بحالٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رد).
(2) الرّاغب، المفردات: (رد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ردد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(5) الفيوميُّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رجع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عود).
(8) المعجم الوسيط: (عود).
(9) الرّاغب، المفردات: (عود).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عود).

مِن أحواله، إلى الموضع الذي ابتدأ منه، وكأنَّ المرتدَّ لم يكمِل طريقَه إلى غايته، بل عرضَ له ما جعلَه يَرتدُّ مِن حيثُ أتى.

ومِن هنا اختير لفظُ الرّدِّ في الآية؛ لكون رجوعِهم إليه تعالى خارجًا عن إرادتهم، وليس لهم في العود رأيٌ؛ لأنَّ الرَّجعة: انصراف وعودة بإرادة الشَّخص، فيتحوّلُ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، سواء أتمّ الفعلَ أم لم يتِمَّه، والعَود: فيه معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابَه حتَّى يوصلَه برجوعه، وفيه معنى الرّجوع إلى نقطة البداية، أي: إلى سابق عهده، فلفظُ الرّدِّ أنسبُ للمقام، وأدعَى لسياق الكلام.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»